إحسان عبد القدوس

فارس الحب والسياسة

- نجل «روز اليوسف» ورئيس تحريرها.
- أفضل من عبر عن مشاعر المرأة.
- كان في السياسة جريئا مثلما كان في الأدب.
- كانت كتاباته دعوة حارة للحب والحرية والجمال والحقيقة وكرامة الإنسان.
- كتب أول مسرحية وهو في العاشرة.
- اهتم بالسياسة منذ صغره، واشترك في المظاهرات عندما كان طالبا.
- سُجن أكثر من مرة بسبب معاركه السياسية.

يتذكر الذين فتحت أعينهم على القراءة الإبداعية فى الخمسينات من القرن العشرين، شخصيتين بارزتين، داعبتا قلوب وعواطف المراهقين والمراهقات، ونسجتا فيهم وفيهن الأحلام الجميلة.

عرف ذلك الجيل والأجيال التالية نزار قبانى فى مجال الشعر «الجرىء»، وعرفوا إحسان عبد القدوس فى مجال القصة والرواية الجريئتين أيضًا.

وقد لا يعرف سوى القلّة أن نزار قبانى بدأ سياسيًا، وتقلّد منصب سفير لبلده سوريا فى أكثر من دولة.

ولا يعرف سوى القلّة أيضا أن إحسان عبد القدوس، الذى لم يوصف غيره، بما وصف هو وبما اتهم من الترويج للأدب الإباحى، والكتابة النسائية بقلم رجل، بدأ أيضًا ككاتب وصحافى سياسى من الطراز الأول، وكان فى السياسة جريئاً مثلما كان فى الأدب.

وكان يُقال عنه إنه أفضل من عرض وعبّر عن مشاعر المرأة، وإنه ربما استطاع أن يثير فيها وينبهها إلى مشاعر كانت غائبة عن وعيها.

كانت كتاباته دعوة حارة للحب والحرية والجمال والحقيقة والكرامة وإنسانية الإنسان. دخل بقلمه تلافيف مشاعر المرأة وتحت جلدها وصور أحاسيسها ببراعة فاقت أقلام النساء، وبقدر كل هذه الرقة والرومانسية كان صلبًا عنيدًا شجاعًا عندما يكتب فى السياسة.

كشفت رواياته عن مكنون العلاقات والنزعات، وتناولت كل أنواع الزيف الاجتماعى والرياء وفساد التقاليد، مثلما كشف مقاله السياسى عن الفساد فى المجتمع وقوى القمع والاستبداد.

ولد إحسان عبد القدوس فى أول يناير سنة ١٩١٩م، ووالده «محمد عبد القدوس»، ووالدته السيدة «فاطمة اليوسف» التى عُرفت باسم «روز اليوسف». درس والده الهندسة، وبدأ العمل موظفًا فى الحكومة كناظر لمدرسة الأقصر الصناعية، ثم ترك الحكومة وتفرغ كلية للفن، وكان كاتبًا يكتب المسرحيات والشعر والزجل، ويمثل على المسرح ويلقى مونولوجات يضع كلماتها وألحانها.

وقد بدأت أمه ممثلة فى وسط المسرح منذ كانت فى العاشرة، وبعد انفصالهما أخذه والده حيث عاش مع جده الشيخ أحمد رضوان، وكان الجد من خريجى الأزهر ومن رجال القضاء الشرعى، لكنه كان يحب الطرب والغناء، وكان يتردد عليه كأصدقاء، كبار المطربين والفنانين، كما كان مشاركًا فى القضايا السياسية، وكان كثير من قادة الثورة منذ أيام مصطفى كامل إلى أيام سعد زغلول، يعهدون إليه بالإشراف علي شؤونهم إذا اضطروا إلى الهجرة خارج مصر. وكان إحسان يزور والدته بين الحين والآخر.

رافض التقاليد

أظهر إحسان منذ طفولته رفضًا للتقاليد الاجتماعية التى يرى أنها ظلمت أمه، وجعلته يعيش بعيدًا عنها، وكان رغم صغر سنه يدرك أنه يجب أن يتحمّل مسئولية أى سلوك يصدر عنه.

بدأ إحسان عبد القدوس حياة القلم منذ فترة مبكرة، حيث نشأ وهو يرى والده يكتب دائمًا، فأمسك بالقلم مقلدًا له، حتى إنه كتب أول مسرحية من تأليفه وهو فى العاشرة من عمره، ولم تكن والدته تود أن يسير على طريق والده، خاصة بعد أن أصدرت مجلة «روز اليوسف»، أرادت أن يكون صحافيًا يتفرغ للصحافة والسياسة، حتى يتحمّل مسؤولية «روز اليوسف».

وكانت ترفض أن تنشر له أى عمل أدبى فى «روز اليوسف»، وعندما أرسل قطعة من الشعر إلى المجلة دون ذكر اسمه ونُشرت فى الصفحة الأدبية، وعرفت

بعد نشرها أنها له، غضبت وعاقبته بأن خصمت مصروفه الأسبوعى الذى كانت تعطيه له.

ووجد إحسان عبد القدوس نفسه موزعًا بين الأدب والصحافة، كان يحب الأدب لأنه يحب والده، ويحب الصحافة لأنه يحب والدته ولا يملك أن يعصيهما، ولأنه كان يعيش المجتمع الصحافى بجانب المجتمع الأدبى تعرف إلى كبار الأدباء والصحافيين فى فترة مبكرة من حياته.

وقد ظهر الحس الوطنى عند إحسان عبد القدوس مبكراً. فقد اهتم بالدراسات السياسية منذ صغره، واشترك فى الحركات والتظاهرات السياسية عندما كان طالبًا فى المدارس الثانوية.

تفرغ إحسان للدراسة عندما التحق بكلية الحقوق، ودرس الأدب العالمى والتاريخ العربى وتاريخ العالم، والمذاهب السياسية ونظم الحكم، وقد أثر كل ذلك فى كتاباته لاحقًا.

تلميذ التابعى

تتلمذ إحسان عبد القدوس على يد مجموعة من الأدباء والصحافيين البارزين، ومن هؤلاء الكتاب الصحافى محمد التابعى الذى كان يعمل فى مجلة «روز اليوسف»، وبدأ إحسان يتعرف على كتاباته وهو فى سن العاشرة، وأعجب بقوة جذب أسلوبه والنغم المريح السهل الذى يكتب به.

ولم تنقطع صلة إحسان بالتابعى حتى بعد أن ترك «روز اليوسف» وعمل فى مجلة «آخر ساعة».

تأثر إحسان بالتابعى كثيراً، فقد بدأ قراءة الإنجليزية تقليداً له، وقد أهداه التابعى أكثر من مائتى كتاب بالإنجليزية، معظمها كتب أدبية، وأثرت اللغة الإنجليزية فى أسلوب التابعى فى الكتابة باللغة العربية، وانتقل هذا التأثير إلى إحسان عبد القدوس.

يقول إحسان عن ذلك: «أنا مؤمن بأنه لا يمكن أن يصل القلم إلى أسلوب له رنينه وله جاذبيته، إلاّ إذا كان الكاتب قد قرأ القرآن وتأثر بنغمات أسلوبه. إنّ أسلوب القرآن هو الموسيقى الأساسية لأسلوب اللغة العربية، موسيقى فى حجم الجملة، وفى الوقفات، وقراءة اللغة الأجنبية هى موسيقى أخرى لها تأثرها فى الموسيقى الأصلية. والتأثر بهذا التداخل الموسيقى يمكن أن يطوّر أسلوب الكاتب، وأسلوب التابعى تطور وبدا كأنه أسلوب جديد بهذا التداخل الموسيقى بين قراءته العربية وقراءته الإنجليزية.

وبلغ من تأثر إحسان بالتابعى أن ظن أن النجاح هو أن يعيش كما يعيش التابعى، فعندما تخرج فى الجامعة تردد فى أن يتزوج بالفتاة التى كان يحبها لأن التابعى لم يكن متزوجًا، إلا أن التابعى نصحه بالزواج، وأحضر المأذون إلى بيته وكان شاهداً على عقد زواج إحسان.

وعندما عُطّلت «روز اليوسف» خلال الحرب العالمية الثانية عمل إحسان عبد القدوس مع التابعى فى «آخر ساعة»، وقد تأثر به فى عمله، واهتم، بالتفاصيل الصغيرة أكثر من اهتمامه بالمشكلات والأسس الكبيرة.

وتأثر إحسان أيضًا بالأخوين على ومصطفى أمين وبعباس محمود العقاد وطه حسين ومحمود عزمى.

زمن الحرية

عمل بعد تخرجه فى كلية الحقوق محاميًا فى مكتب المحامى إدوارد قصيرى، لكنه عين بعد سنة محرراً فى مجلة «روز اليوسف»، وكان صحافيًا جريئًا شجاعًا، لا يهاب، مادام الحق معه. ويقول عن تلك الفترة: «تميزت بالحرية الكاملة في كل ما أكتب، لأن والدتى كانت قد منحتنى هذه الحرية. وقد وصلت حريتى إلى حد أننى لم أكن أقيد آرائى بالانتماء إلى أى حزب، أو بالانتساب إلى أى رئيس، ولا حتى الارتباط بصداقة يمكن أن تقيد رأيى».

هذه الحرية جعلته يكتب فى ٩ أغسطس سنة ١٩٤٥م مقالاً بعنوان «الرجل

الذى يجب أن يذهب»، طالب فيه برحيل اللورد كيلرن المندوب السامى والسفير البريطانى فى مصر. وكان كيلرن قد حكم مصر ١٢ سنة، وكان إحسان عبد القدوس الصحافى والسياسى الوحيد الذى هاجمه.

وكانت نتيجة هذا المقال سجن إحسان عبد القدوس لأول مرة. وعقب الإفراج عنه، كافأته والدته بأن عينته رئيسًا لتحرير مجلة «روز اليوسف»، وبعد توليه المسؤولية، عمل على النهوض بالمجلة من خلال جعلها صحافة رسالة، مهتما بأسلوب الكتابة، فضم إلى أسرة تحرير المجلة عبد المنعم السباعى بأسلوبه المرح ولمسته الشاعرية ليجيب عن مشكلات القراء العاطفية من خلال باب «جراح القلب»، وعهد إلى سامى داود بالإشراف على صفحات الرأى والتحقيقات فجعلها بأسلوبه سهلة الهضم.

وضم إلى المجلة الكاتب الإسلامى خالد محمد خالد، وكان أحمد بهاء الدين صاحب أكثر الأساليب نفاذًا إلى العقول، حتى الصفحات الإخبارية (أخبار السياسة والفن والرياضة والمجتمع) لم يشأ إحسان أن يتركها تقليدية، فقيمتها الإخبارية لم تكن تبرر، من وجهة نظره، أن يفتقر أسلوبها إلى الجمال، ولهذا تولّى بقلمه إعادة صياغتها جميعًا.

ولأنه شاب عهد إلى الشباب بالمسؤولية الكاملة، حتى إن الافتتاحية التى كان يكتبها إحسان، كان يشارك فى صياغتها المحررون. وكان مجرد محرر عادى فى المجلة، يتحمل أحيانًا مسؤولية حملة صحافية تستمر عدّة شهور.

معركة باسلة

ويقول أحمد بهاء الدين عن الثقة التى أولاها إحسان عبد القدوس للشباب من حوله: «كان ذلك أوائل سنة ١٩٥٢م، وكان إحسان عبد القدوس يقود من مجلة «روز اليوسف» معركة باسلة ضد فساد الإنجليز والقصر، وكان طبيعيًا أن يتجه الشباب إليها، ذهبت ذات صباح إلى مبنى المجلة، وأعطيت البواب مقالاً فى مظروف يحمل اسم إحسان عبد القدوس الذى لم أكن أعرفه، ولم يكن يعرفنى، وكان مقالاً ليس سهلاً، فيه تعليق عنيف على الميزانية الجديدة للدولة

وفى يوم الإثنين التالى مباشرة، اكتشفت أن هذا المقال منشورا فى الصفحة الأولى لمجلة «روز اليوسف» وبعناوين كبيرة، وبتوقيع شاب مجهول تمامًا هو أنا، مجهول للقراء ومجهول لصاحب المجلة ورئيس تحريرها، هذا التصرف غير المألوف عندنا الآن، اختصر عشر سنوات على الأقل من كفاحى الصحافى لأشق طريقى فى مهنة الصحافة، ولو كانت هذه الروح عندنا فى شتى المجالات لاختصرت بلادنا كلها عشرات السنين فى طريق التقدم».

عوامل النجاح

ومن عوامل نجاح إحسان فى قيادة سفينة «روز اليوسف»، أنه عمل على إتاحة الفرصة لكافة التيارات الفكرية فى عالم السياسة والأدب والفن أن تتحدث من فوق منبر «روز اليوسف» على قدم المساواة، وبهذا وجد القارئ فى مجلة «روز اليوسف» صحافة رأى لا تجثم على صدره بالمقالات والخطب ولا تتجهم فى وجهه، وإنما تخاطبه طوال الوقت بمرح واستبشار، ويلدغ لسانها خصومه دون أن يسيل دمهم، وبدلاً من الرأى الواحد تقدم له آراء عدة.

وهكذا كان إحسان أديبًا يستلهم الفن والذوق، وكان كاتبًا ينتمى إلى حرية التعبير، ويتبنى قضية الإنسان، ولم تكن قضيته أبدًا ترويج صحيفة أو محاربة مدرسة صحافية لصالح مدرسة صحافية أخرى.

وظل إحسان رئيسًا لتحرير «روز اليوسف» حتى سنة ١٩٦٤م، وكان قد تولّى رئاسة مجلس إدارة «روز اليوسف» فى ٢٥ يونيو ١٩٦٠م بعد تأميم الصحافة، وكان رئيس مجلس الإدارة الوحيد من بين أصحاب الصحف، كما عين عضوًا منتدبًا للمؤسسة فى ١٨ أبريل سنة ١٩٦٢م.

ثم أقيل من رئاسة «روز اليوسف» على أن يشارك فى تحريرها وذلك من ٩ نوفمبر ١٩٦٤م، حتى ١١ يونيو سنة ١٩٦٦م، وعين فى اليوم التالى رئيسًا لتحرير أخبار اليوم، ثم رئيسًا لمجلس إدارتها فى ٢٠ يوليو ١٩٧١م، وظل رئيسًا لتحرير ورئيسًا لمجلس إدارة «أخبار اليوم» حتى ٢٤ مايو سنة ١٩٧٤م.

وعُيّن بعد أن ترك «أخبار اليوم». كاتبًا متفرغًا فى «الأهرام» حتى ١٢ سبتمبر سنة ١٩٧٥م، وهو التاريخ الذى تولى فيه منصب رئيس مجلس إدارة «الأهرام» حتى أقيل منه يوم ٢٨ مارس ١٩٧٦م، وعُيّن مستشارًا للأهرام وكاتبًا متفرغًا من التاريخ ذاته، حتى وفاته فى ١١ يناير سنة ١٩٩٠م.

قضايا ومعارك

خاض إحسان طوال تلك الفترات، العديد من المعارك الصحافية، وقد أولى اهتمامًا خاصًا بالقضايا السياسية، وكان فى كتاباته ثائرًا يقف مواقف صريحة ضد النظم السياسية التى كانت قائمة قبل الثورة، وأدت به آراؤه الجريئة وغيرته الوطنية إلى دخول السجن عدة مرات، كان أولها سنة ١٩٤٥م، وأودع سجن الأجانب، ثم سجن عام ١٩٥٤م بعد ٣ مقالات نُشرت فى «روز اليوسف» هاجم فيها مجلس قيادة الثورة «الجمعية السرية التى تحكم مصر» حيث أُودع السجن الحربى يوم ٢٩ أبريل سنة ١٩٥٤م حتى ٣١ يوليو من العام ذاته، وتعرض لأكثر من محاولة اغتيال.

ومن أعماله الصحافية البارزة، قضية الأسلحة الفاسدة التى تناولها فى عدة مقالات نُشرت فى مجلة «روز اليوسف» عام ١٩٥٠م.

أدب غزير

وبقدر ما كان إحسان عبد القدوس كاتبًا صحافيًا متميزًا عالج بشجاعة قضايا الشعب فى مقالات سياسية جريئة، كان أيضًا أديبًا متميزًا مرهف الحس والوجدان، أثرى الأدب العربى بالعديد من الروايات والقصص القصيرة.

ويقول الناقد رجاء النقاش: «إن أدب إحسان عبد القدوس يشبه فتاة رائعة الجمال، يهرب منها كل الرجال خوفًا من تحمل مسؤولية التعامل مع هذا النوع من الجمال. والرجال يهربون لشعورهم بأنهم لن يستطيعوا أن يفرضوا على هذه الجميلة أى نوع من الشروط، بسبب ثقتها بنفسها، واكتفائها بنعمة الموهبة الطبيعية».

وكان إحسان عبد القدوس متميزاً فى الكتابة منذ كان فى العاشرة من عمره، حيث كتب مسرحية، وأيضًا كتب الشعر والزجل، وقد صدرت مجموعته القصصية الأولى سنة ١٩٤٨م بعنوان «صانع الحب»، والمجموعة الثانية سنة ١٩٤٩م بعنوان «بائع الحب»، وأصدر «النظارة السوداء» سنة ١٩٥٢م، ثم أصدر سنة ١٩٥٤ «أنا حرة» وهى قصة طويلة، و «أين عمرى» (مجموعة قصص)، وأصدر فى العام التالى «الوسادة الخالية» (مجموعة قصص)، و «لا أنام» و «الطريق المسدود» وهما قصتان طويلتان، وصدرت له سنة ١٩٥٧م قصة «فى بيتنا رجل» وفى السنة التالية قصة «شىء فى صدرى»، ثم «عقلى وقلبى» (مجموعة قصص)، و«منتهى الحب» (مجموعة قصص)، وأصدر سنة ١٩٦٠م، «البنات والصيف» و «لا تطفئ الشمس» وهما قصتان طويلتان، وصدر له سنة ١٩٦١ «زوجة أحمد» ومجموعة «شفتاه» القصصية. وقصة «ثقوب فى الثوب الأسود» و «بئر الحرمان» (مجموعة قصص)، وبلغ مجموع ما أبدعه من أعمال حتى وفاته ٥٨ كتابًا، كان آخرها سنة ١٩٩٠م، «لمن أترك كل هذا» وهى مجموعة قصص.

وقد تُرجمت العديد من قصصه إلى اللغات الأجنبية ومنها الإنجليزية والفرنسية والألمانية والصينية والأوكرانية.

سينما عبدالقدوس

لعب الروائى إحسان عبد القدوس بقصصه ورواياته دوراً بارزاً فى مسارالسينما المصرية، وإعطائها صفة التعامل مع المجتمع المصرى. وكانت بداية دخول أدبه إلى السينما من خلال قصة «أين عمرى» إخراج أحمد ضياء الدين وبطولة ماجدة وزكى ورستم، وتبعتها روايات «الوسادة الخالية»، و «الطريق المسدود»، و «أنا حرة»، و «لا أنام»، و«فى بيتنا رجل»، و «شىء فى صدرى»، و «النظارة السوداء»، و«أنف وثلاث عيون»، و«أبى فوق الشجرة» و«إمبراطورية ميم» و«الراقصة والطبّال» و «الراقصة والسياسى» و «يا عزيزى كلنا لصوص»،

وغيرها، والتى قاربت ٥٠ فيلمًا. وقدم إحسان عبد القدوس فى هذه الأفلام واقعًا اجتماعيًا جديدًا، من خلال سلاسة درامية ميزت قصصه، إضافة إلى دقة تحليل أحاسيس ومشاعر المرأة، ورصد حركتها داخل إطار اجتماعى جديد.

أب وزوج مثالى

يوصف إحسان عبد القدوس فى بيته بأنه كان مثالاً للزوج المحب والأب الحنون، وكان باراً بوالدته، وظلت أفكاره دائمًا شابة، حتى بعد أن وصل إلى السبعين، ويقول عارفوه: إن الحرية التى عشقها مارسها فى بيته أولاً، ربى أبناءه، وجعلهم مسئولين عن أنفسهم، وترك لهم حرية الاختيار وهو واثق من صحة اختياراتهم دون أن يحاول أن يفرض عليهم أى فكرة.

وقد تزوج إحسان عبد القدوس فى ٥ نوفمبر سنة ١٩٤٣ بلواحظ عبد المجيد المهيلمى التى ظلت إلى جواره حتى وفاته وله ولدان، هما محمد عبد القدوس الصحافى فى «أخبار اليوم»، وأحمد عبد القدوس ويعمل مهندسًا.

ورحل الكاتب الصحافى والأديب الكبير عن الحياة سنة ١٩٩٠م، ولكن أفكاره وآثاره وإبداعاته الأدبية مازالت باقية تسكن وجدان وقلوب الشباب العربى من المحيط إلى الخليج.